الفصل الخامس عشر

رثاء الزعيم وحفلات التأبين

تجلى تقدير الأمة للزعيم الراحل في المراثي التي جادت بها قرائح الكتاب والشعراء والخطباء على صفحات الجرائد، أو الحفلات والمجتمعات، وقد صدرت هذه المراثي عن إخلاص صادق في تقدير الفقيد، ومعرفة لفضله العظيم؛ لأن أحدًا لم يكن يقصد من رثائه التقرب إلى أي فرد، أو ذي جاه، أو هيئة أو سلطة يبتغي النفع على يدها، فكانت المراثي فيه فيض الإخلاص والشعور العميق بتكريم الوطنية والتضحية.

حفلة جنيف

هي أول حفلة أقيمت لتأبينه؛ إذ اجتمع الوطنيون المصريون في مدينة جنيف بفندق السلام يوم (٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٩م)، وتعاقب الخطباء، فخطب في الاجتماع كل من: الدكتور يحيى الدرديري، والأستاذ علي الشمسي (باشا)، والأستاذ عوض البحراوي (بك)، والدكتور محمد توفيق، وعددوا مآثر الزعيم، ورد عليهم الأستاذ أحمد فريد بك شاكرًا بالنيابة عن أسرة الفقيد.

حفلة الأربعين التي أقامها الحزب الوطني

وأقامت اللجنة الإدارية للحزب الوطني حفلة تأبين الفقيد يوم الأربعين لوفاته (الجمعة ١٩ ديسمبر ١٩١٩م) بمدفن مصطفى كامل، فما وافت الساعة التاسعة صباحًا حتى امتلأ المدفن بالألوف من الذين جاءوا من العاصمة والأقاليم لحضور الحفلة، وافتتحت بتلاوة آي الذكر الحكيم، ثم وقف الأستاذ محمد زكي علي بك سكرتير الحزب الوطني، وألقى كلمة شكر فيها الحاضرين على حضورهم الحفلة، وتلا خطابًا من الشيخ عبد العزيز جاويش يصف فيه الأيام الأخيرة للفقيد.

خطبة علي فهمي كامل بك

ثم وقف علي فهمي كامل بك وكيل الحزب الوطني، وألقى خطبة جاء فيها:

«أيها السادة: ما اجتمعنا في هذه الساعة وفي هذا المكان إلا لنعرض تاريخ رجل من رجالنا، وزعيم من زعمائنا، وبطل من أبطالنا، هو المرحوم محمد بك فريد زعيم الحزب الوطني ورئيس الأمة المصرية، مات رحمه الله تلك الموته التي عرفتموها، بعيدًا عن وطنه وأهله، مات بعد أن حرم نسيم مصر ثماني سنوات كاملات، حبًّا في تحرير النيل ووواديه وعملًا لتحقيق أماني أمته وأمانيه، مات غير آسف على فراق أهل أو بنين، أو أية نعمة من نعم الحياة، مات في ميدان الجهاد مرتاحًا مسرورًا؛ لأنه أدى واجب الوطن فوق ما يجب. وقد سمع صوت أمته ينبعث عاليًا من وادي النيل فيهز دويه العالمين القديم والجديد، لفظ آخر نفس من أنفاس الحياة داعيًا لأمته العزيزة لديه بالتوفيق لنيل الحرية والاستقلال.

لقد مات فريد يا مصطفى! مات خليفتك الذي أقسم أن لو انتقل فؤاده من الشمال إلى اليمين، أو تحولت الأهرام من مكانها المكين ما تغير له اعتقاد أو تبدل مبدأ، فبر بقسمه، وكان من المخلصين.

مات بعد أن ترك خلفه آلاف الآلاف من ذوي العزائم الماضية، والهمم الكبيرة. هؤلاء الذين تنبأت يا مصطفى ببعثهم قبيل موتك، فكان تنبؤك اليوم حقيقة لا مراء فيها. مات ليلحق بك، وليسكن معك جنة الأبرار المتقين.

وهب فريد قوته وماله وعمره لخدمة أشرف مبدأ في الوجود مبدأ إنهاض الأمة واسترداد مجد الوطن، فهل نحن على دربه سائرون؟ أجل! لقد اتفقنا جميعًا بجد وهمة وعزيمة أرسخ من الجبال الشم على أن نكون قلبًا واحدًا في القول ويدًا واحدة في العمل».

خطبة مندوب غبطة البطريرك

ثم وقف الأب حنا أحد أعضاء الوفد القبطي الذي اشترك في الاحتفال، وقال:

«أفتتح كلمتي: {بسم الله الرحمن الرحيم}، وبمخاطبتكم «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فرد القوم التحية، ثم قال: إنه دخل مكان الاحتفال بذكرى الأربعين مرتين وهو باكٍ، وكانت المرة الأولى يوم وفاة الرئيس الأكبر مصطفى الذي عرفه قبل أن يكون قسيسًا، وجالسه مرارًا، وحادثه تكرارًا فوجد فيه كل صفات الرجولة، وأما المرة الثانية فهي موقفه لرثاء البطل فريد الذي ترك مناصب عالية غير آسف عليها خدمة لمصر، ثم قال: أبكي الذي كان بالحق فريدًا».

وسرد الأب الجليل حادثة وقعت للسيد المسيح عليه السلام، يوم تألب الرومان عليه وعلى قومه الذين كانوا يبكون من أجله، فقال لهم: «لا تبكوا عليَّ؛ بل ابكوا على أنفسكم».

وذكر الأب الجهاد الوطني السلمي المشروع، وتكلم بإسهاب عن الاتحاد، وحث القوم على التضامن في سبيل العمل بإخلاص، لنحقق الآمال، ودعا الله سبحانه وتعالى أن يديم الاتحاد، وأن ينجح المقاصد، فأمن الحاضرون، وقبل أن يترك مكانه ذكر أن غبطة البطريرك كان يود من صميم فؤاده الحضور بنفسه للاشتراك في الاحتفال؛ ولكن شيخوخته وضعف صحته منعتاه، فأناب عنه الوفد المشار إليه.

قصيدة حافظ إبراهيم

ووقف في ختام الحفلة شاعر النيل «حافظ إبراهيم» وألقى بصوته الجهوري قصيدته العصماء في رثاء الفقيد، قال:

من ليوم نحن فيه من لغَدْ؟ مات ذو العزمة والرأي الأسَدْ

حـل (بالجمعـة) حـزن وأسـى ... ومشى الوجد إلى (يوم الأحد)[١]
وبـدا شِـعري عـلى قرطاسـه ... لوعـةً سـالتْ عـلى دَمـع جَمَـدْ
أيهـا النيـل لقـد جـل الأسـى ... كـنْ مـدادًا لي إذا الـدمع نَفَـدْ
واذبـلي يـا زهـرةَ الـروض ولا ... تبـسمي للطـلِّ فـالعيشُ نكـد
والـزم النَّـوح أيـا طـير ولا ... تبتهج بالشدو فالشدو حدد[٢]
فلقـد ولى (فريـد) وانطـوى ... ركـن مـصر وفتاهـا والـسند
خالـد الآثـار لا تخـش الـبلى ... لـيس يـبلى مـن لـه ذِكـرٌ خلـد
زرت (بـرلين) فنـادى سـمْتها ... نزلت شمسُ الضحى برجَ الأسد
واختفـت شمـسُك فيهـا وكـذا ... تختفـي في الغـرب أقـمار الأبـد
يـا غريـب الـدار والقـبر ويـا ... سـلوة النيـل إذا مـا الخطـب جد
وحـسامًا فـل حديـه الـردى ... وشـهابًا ضـاء وهنـا وخمـد
قـل (لـصب النيـل)[٣] إن لاقيتـه ... في جـوار الـدائم الفـرد الـصمد
إن مـصرًا لا تنـي عـن قـصدها ... رغـم مـا تلقـى وإن طـال الأمـد
جئـتُ عنهـا أحمـل البـشرى إلى ... (أول البـانين)[٤] في هـذا البلـد
فاسـترح واهنـأ ونـم في غبطـة ... قد بذرت الحب والشعب حصد
آثـر النيـلَ عـلى أموالـه ... وقُـواه وهـواه والولـد
يطلـب الخـير لمـصر وهـو في ... شـقْوة أحـلى مـن العيش الرغـد
ضـاربٌ في الأرض يبغـي مأربًـا ... كلـما قاربـه عنـه ابتعـد
لم يعبـه أن تجنَّـى دهـره ... رب جـد حـاد مـن مجـراه جـد[٥]

(١) كنى بيوم الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين.
(٢) الحدد: الحرم الذي لا يحل أن يرتكب.
(٣) يريد مصطفى كامل.
(٤) يريد مصطفى كامل.
(٥) الجد (بالكسر) الاجتهاد، وبالفتح الحظ، والمعنى: رب اجتهاد أخطأه الحظ.

يستجم العزم حتى إن بدت ... فرصة شد إليها وصمد
فهو لا يثني عنانًا عن منى ... وهو هجيراه (من جد وجد)
فأياديه إذا ما أنكرت ... إنما تنكرها عين الحسد
فقدت مصر (فريدًا) وهي في ... موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر (فريدًا) وهي في ... لهوة الميدان والموتُ رصد
فقدت منه خبيرًا حوِّلا ... وهي والأيام في أخذ ورد[1]
لم يكد يمتُعها الدهر به ... في ربوع النيل حيًّا لم يكد
ليته عاش قليلًا فترى ... شعب مصر عينه كيف اتحد
ويْج مصر بل فويجًا للثرى ... إنه أبلغ حزنًا وأشد
كم تمنى وتمنى أهله ... لو يوارَى فيه ذياك الجسد
لهفَ نفسي هل (ببرلين) امرؤْ ... فوق ذاك القبر صلى وسجدْ
هل بكت عينٌ فروَّت ترْبه ... هل على أحجاره خط أحد
هاهنا قبرُ شهيد في هوَى ... أمةٍ أيقظها ثم رَقدْ

ثم اعتذرت لجنة الاحتفال عن عدم إلقاء المراثي الأخرى؛ اكتفاء بنشرها، وذلك لضيق الوقت، وحلول موعد أداء فريضة الجمعة، وختمت الحفلة بتلاوة ما تيسر من القرآن.

حفلة لجنة الوفد

وأقامت لجنة الوفد المركزية حفلة تأبين للفقيد؛ اعترافًا بفضله على الحركة الوطنية، أعدت لها سرادقًا أما دار حمد باشا الباسل، وذلك في صبيحة يوم الجمعة (٢ يناير سنة ١٩٢٠م).

خطبة مرقس بك حنا (باشا)

(١) الحول: الخبير الحاذق بتحويل الأمور.

وألقى الأستاذ مرقس بك حنا (باشا) خطبة جاء فيها:

«أيها السادة: أفتتح هذه الحفلة باسم الله جل جلاله، وباسم الوطن المفدى، أفتتحها وقد اجتمعنا اليوم لنحيي ذكرى راحل كريم، ومصري عظيم، لا تغيب ذكراه في الواقع، ولا تغيب أعماله الجليلة عن واحد منا، واشتهر الرجل بصلابته في الوطنية، وبتفانيه في محبة بلاده وتضحية كل ما يملك من وقت ومال، بل وصحة ومن أجل خدمتها وإعلاء شأنها، تتجلى هذه الصفات كلها في جميع أدوار حياة المرحوم فريد بك بلا استثناء ولا انقطاع، فقد عرفته موظفًا، عرفته محاميًا، وعرفته سياسيًّا، وفي كل هذه الأدوار لم تفارقه عزيمته مرة، ولم تخنه شجاعته لحظة رغم الاضطهاد الذي عاناه، والضيق الذي كابده لا لشيء سوى إخلاصه وتفانيه في محبة وطنه وبلاده».

ثم تكلم عن وطنيته حين كان وكيلًا للنيابة، واستقالته من منصبه بسبب قضية التلغرافات، واشتغاله بالمحاماة، ثم قال:

«لئن دافع في بدء هذه الحياة الجديدة عن طالب حق فردي أحيانًا، فقد دأب على الدفاع عن القضية المصرية العظمى، بغير ملل ولا كلال. نعم شعر فريد بك في دور المحاماة بجلال العمل العظيم الذي أقدم عليه، وجمال الميدان الذي اختاره لنفسه، فأحست نفسه الكبيرة بفرق عظيم بين القيود العديدة التي تحيط بالرجل في خدمة الحكومة -خصوصًا إذا كانت خاضعة للأجنبي- وبين جمال الحرية وجلالها، في ذلك الوسط الجديد السامي، فوقف نفسه للحال على الدفاع عن أسمى قضية في الوجود لمصر والمصريين، وضحى من ذلك الحين شخصه وحياته لإنقاذ بلاده من ربقة الحكم الأجنبي، والأخذ بيدها إلى حيث الحرية والكرامة والشرف -إلى الاستقلال التام؛ ولم يثنه عن ذلك النفي ولا المرض، ولا بذل المال، بل بقي رئيسًا للحزب الوطني يجاهد في سبيل إعلاء شأنه ووطنه إلى آخر لحظة من حياته، حتى على سرير الموت.

تلك هي صورة مصغرة لحياة المرحوم فريد بك، وتلك هي القضية المقدسة التي خصص نفسه من أجلها، وبقي مدافعًا عنها إلى يوم رحيله، لا يثنيه عن عزمه ضيق ولا اضطهاد، ولا يلويه عن السير فيها بإخلاصه المعهود حبس ولا إبعاد، كان قلبه يفيض إخلاصًا وصدقًا، وهمة وعزمًا، وشجاعة وثباتًا لا حد له ولا نهاية».

إلى أن قال في ختام الخطبة:

«إني أنتهز هذه الفرصة لأرجو الأمة المصرية الكريمة، وكل فرد من أفرادها، أن يعضد تلك الفكرة السامية التي نادى بها الحزب الوطني تخليدًا لذكرى فقيدنا الذي نحتفل اليوم بذكراه، وهي إقامة «مستشفى للعمال» باسمه، فإن العمل في ذاته جميل، جدير بالعناية، وفيه فكرة أسمى؛ وهي الاعتراف بجميل المجاهدين.

إنما الأبطال أيها السادة ليسوا أبطال الحرب والميدان؛ بل الأبطال أبطال الجهاد والسلام، وعلى رأسهم أولئك الذين يضحون أيامهم، ويقضون عمرهم ويعانون الصعوبات على أنواعها، والمتاعب على أشكالها، من أجل سعادة مواطنيهم، وجميل مستقبل بلادهم، وقد كان فريد واحدًا من أولئك الأبطال، كما كان من قبله مصطفى كامل، وهو خير من تخلد ذكراه ونتمدح بحياته وأعماله.

والله أسأل أن يكثر بيننا من أمثاله، وأن يكلل مساعينا، وأعمال الوفد المصري والمجاهدين، والمصريين عامة بالنجاح والفلاح، ويصبح المستقبل الذي كان يعنيه قاسم بك أمين حاضرًا، وتصبح آمالنا حقيقة ثابتة، تتجلى أمام أعيننا في القريب العاجل إن شاء الله».

قصيدة خليل مطران

ووقف شاعر القطرين «خليل مطران» وألقى قصيدته الفريدة في رثاء الفقيد، قال:

أفريد لا تبعد على الأدهار ... أنت الشهيد الخالد التذكار
بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى ... فَديت مصر وفُديت من دار
حررت نفسك دائب المسعى إلى ... تحريرها لتعز بعد صغار
مسترسلًا والدهر في إقباله ... مستبسلًا والدهر في الإدبار
ثبْتًا إذا ما الراسخون تقلقلوا ... متوافق الإعلان والإسرار
فبررت بالعهد الذي عاهدته ... ووفيت في الإيسار والإعسار
ما كان ذاك العمر إلا قُربة ... موصولة الآصال بالأسحار
ومن المنى ما ليس يوفي حقه ... حتى يكون الجود بالأعمار

فريد ومصطفى:

إني لأذكر مصطفى ورفيقه ... في مستهلها وفي الإدبار
متوخيًا إعتاق مصر كلاهما ... وكلاهما لأخيه خير مبار
وكلاهما يسعى الغداة مذللًا ... سبل النجاح لمقتفي الآثار
وكأن مصر حيال كل مخاطر ... إذ ذاك في شغل عن الأخطار
في قلبها حب الحياة طليقة ... لكنها تخشى أذى الإظهار
وضميرها آنًا فآنًا يُجتلى ... فيُرى كما اقتدح الزناد الواري
عرفا حقيقتها وبثا بثها ... ثقة وما كانا من الأيسار
لم يلبثا متآزرين بنية ... مصدوقة في خفية وجهار
حتى إذا ما أيقظا إيمانها ... فذكا ذكاء النور قبل النار
أبدت أساها يوم فارق مصطفى ... هذا الجوار ورام خير جوار

فريد رئيسًا للحزب الوطني:

ذهب الرئيس فنيط عبء مقامه ... بالأنزه الأوفى من الأنصار
أفريد هذا الشأو قد أدركته ... وسبقت من جاراك في المضمار
فتقاض أضعاف الذي قدمته ... واستسق صوب العارض المدرار
إن تلتمس جاهًا أصبْ ما تشتهي ... أو رفعة فاظفر بالاستيزار
والشرق يقبل قد علمت من ... يتحملون غرائب الأعذار
الشعب شبه البحر لا تأمن له ... ما أمن مقتعد متون بحار
فغدًا ويا حذرًا لمثلك من غد ... قد تستفيق ولات حين حذار
يسلو الألى عبدوك أمس وربما ... كوفئت من عرف بالاستنكار
فتبيت صفر يد وكنت مليئها ... وتذوق كل مرارة الإقتار
لكن أبيت العرض إلا سالمًا ... وإن ابتليت بشقوة وضرار
لم تعتقد إلا الولاء وقد أبى ... لك أن تلبي داعي الإخفار
وسموت عن أن يستميلك خادع ... بالمنصب المزجى أو الدينار
فظللت مبدؤك القويم كعهده ... عند الوفاء وفوق الاستئثار
تزداد صدق عزيمة بمراسه ... ورسوخ إيمان بالاستمرار
ما إن تبافى ساهرًا مترصدًا ... يرنو إليك بمقلة الغدار
يجنى عليك لغير ذنب باغيًا ... والبغي جناء على الأطهار
من كان جار السوء يومًا جاره ... عدت فضائله من الأوزار

فريد في السجن:

قل للرئيس إذا مررت بسجنه ... إن السجون معاهد الأحرار
وافيته طوعًا ورأيك ثابت ... إن اعتقالك مطلق الأفكار
إن يحجبوك فإن فكرك رافع ... نورًا تضاء به سبيل الساري
كم تحجب الظلمات طودًا شامخًا ... فيلوح فوق ذراه ضوء منار

إنا لنسمع من سكوتك حكمة ... ونرى هدى في وجهك المتواري
وإذا النفوس تجردت لمرامها ... غنيت عن الأسماع والأبصار
حاشاك أن تأسى وهل تأسى على ... علم بأن التم بعد سرار
الأنبياء انتابهم زمن به ... لزموا التفرد عن رضا وخيار
لجأوا إلى الخلوات واحتبسوا بها ... شظفى المعايش لابسي الأطمار
مستجمعين مروضين قلوبهم ... لقيام دعوتهم على الأخطار
ومن الغيابات التي أمسوا بها ... بعثوا الهدى كالشمس في الإزهار
سل موحشًا في طور سينا سامعًا ... كلم المهيمن في اصطعاق النار
سل طيف جلجلة يكاد من الطوى ... يسمو به راق من الأنوار
سل خاليًا بحرًا يلبي ربه ... في الغار عن صرعاته في الغار
بالعزلة اكتملوا ورب مروض ... للنفس حررها بالاستئسار
لا شيء أبلغ بالدعاة إلى المنى ... من أن تمحصهم يد المقدار

فريد في طريق النفي:

لم يكفه ما كان حتى جاءه ... ما فوق غل الجيد والإحصار
النفي بعد السجن: تلك عقوبة ... أعلى وأغلى صفقة للشاري
يسمو بها السجن القريب جداره ... شرف إلى سجن بغير جدار
لا يترك الجاري عليه حكمه ... إلا ليدركه القضاء الجاري
أي السفائن تستقل كأنها ... إحدى المدائن سيرت ببخار
ينأى بها عن أهله ورفاقه ... دامي الفؤاد وشيك الاستعبار
ينبو ذرا البلد الأمين بمثله ... والزاحفات أمينة الأحجار
متلفتًا حين الوداع وفي الحشى ... ما فيه من غصص ومن أكدار
متشبعًا مترويًا مما يرى ... لشفاء مسبغة به وأوار
يرنو إلى صُفر الشواطئ منطقت ... أعطافها بالأزرق الزخار

ويذوب قبل البين من شوق إلى ... أنس الحمى وجماله السحار
يستاف ما تأتي الصبا بفضوله ... من طيب تلك الجنة المعطار
وبسمعه لحن المواطن جامعًا ... لغة الأنيس على لغى الأطيار
لهفي عليه مشردًا قبل الردى ... سيهيم في الدنيا بغير قرار
من أجل مصر يؤم كل ميمم ... في قومه ويزور كل مزار
لا يوم يسكن فيه من وثب، ومن ... بسكينة للكوكب السيار
في غربة موصولة آلامها ... أنضته في الرحلات والأسفار
تنتابه الصدمات لا يشكو لها ... إلا شكاة المحرب الكرار
ثقة بأن الفوز ليس لجازع ... في العالمين، الفوز للصبار
وتعضه الفاقات لا يلوي بها ... عزًّا ويسترها بستر وقار
حرصًا على المتطولين بفضلهم ... أن يجنحوا وجَلًا إلى الإقصار

فريد في مرضه:

ما كان هذا الحد حد عذابه ... تردى الأسود ضرورة الأخدار
صال الشقاء على فريد صولة ... بين الجوانح أنذرت ببوار
قصرت ليالية على مجهوده ... واليوم عدن عليه غير قصار
ما بال ذاك الوجه بعد تورد ... خلع النضارة واكتسى ببهار
ما بال ذاك الجسم بات من الضنى ... كالرسم في جرف به منهار
ما بال ذاك العزم بعد مضائه ... عثرت به العلات كل عثار
ما بال ذاك القلب بعد خفوقه ... تنتابه هدآت الاستقرار
أمسى يعالج سكرة في نزعه ... من لم يذق في العمر طعم عقار
ولو استطاع لما أضاع دقيقة ... يمضي الزمان بها مضي خسار
وفَّى بما أعطاه حق بلاده ... والموهبات ترد رد عواري
أمكانه هذا أتلك حليه ... والبيت خال والمقلد عاري

أكذاك يختم في الشقاء حياته ... من كان جم الجاه والإيسار
ماذا تفي من حقه بعد الذي ... عاناه كل قلائد الأشعار
إن الذي يبلوه شاري قومه ... غير الذي نتلوه في الأسطار

عظة وفاته:

مات الرئيس فراع مصر وأهلها ... ذاك النعيُّ وذاع في الأمصار
مات العصامي العظامي الذي ... ما كان بالعاتي ولا الجبار
مات الذي مارى سواه في الهوى ... يوم الحفاظ وعاش غير ماري

تحية الختام:

أفريد هذا ما يهيئه الفدى ... لعشيرة فديتها وديار
نمْ إن مصرًا عنك راضية وفزْ ... من شكرها بمثوبة الأخيار
أوشكت أجزع فانتهيت بأنني ... آنست فيك مشيئة للباري

خطبة أمين بك الرافعي

ووقف المرحوم أمين بك الرافعي وألقى الخطبة الآتية:

«إنَّ الحياة وما نصادفه فيها من متاعب وأحزان، ومصائب وإرهاق، وضنك وإبعاد ليست إلا ميدانًا من ميادين القتال، فمن استطاع الثبات فيها ولم يتقهقر أمام نارها الحارة، كان بطلًا من أبطالها، وكثيرًا ما يكون أبطال هذا الميدان السلمي أكثر شجاعة من أبطال الحروب؛ لأن الآلام التي يتحملونها في خلال جهادهم الفكري أشد وقعًا من آلام المعارك الحربية، وبينما المحارب يملك سلاحًا كسلاح خصمه للدفاع عن نفسه، لا نرى المجاهد السلمي إلا أعزل من كل شيء، سوى قلبه الذي يقاوم به جميع أعدائه، وعزيمته التي يذلل بها كل العقبات التي تعترض سبيله، وقد قال أحد حكماء الرومان: لا يوجد في العالم من هو أكبر نفسًا من ذلك الذي يعرف كيف يحتمل الآلام ويواجه المكاره بشجاعة غير معتمد على قوة سوى قوة إرادته.

وإن كانت مصر قد حزنت لفقد فريد، فما ذلك إلا لأنها فقدت بطلًا عظيمًا من أبطال هذا الميدان، ونفسًا كبيرة من هذه النفوس التي يبخل الدهر بكثير من أمثالها.

مات فريد؛ لأن الأبطال يموتون؛ ولكن أعمالهم تبقى بعدهم.

مات فريد؛ لأن أمثاله من عظماء الرجال لا بد أن يموتوا، وفاقًا لسنن العالم الذي نعيش فيه، ولكن الله يأبى أن تموت معه مبادئه؛ لأن المبادئ القويمة تحيا بعد موت أصحابها. مات فريد ولكن تعاليمه لم تمت؛ بل هي منقوشة في صدر كل مصري ينادي الآن بأنه لا يرضى بغير الاستقلال بديلًا، فنحن نبكي الرجل الذي رحل عنا بجسمه، ولكنا نهتف للوطني الذي علمنا أن الحياة الحقيقية لا يعيشها الإنسان بين الملذات والسرور، ولا بالثروة والجاه، ولا بالشهرة والألقاب، ولا بالسيطرة والسلطان، وإنما هي التي يقوم فيها بأكثر الأعمال فائدة لبلاده، وبأقدس الواجبات لوطنه وللإنسانية، نهتف للوطني الذي ترك لأمته ذكرى حياة شريفة كلها آيات بينات، وما هذه الذكرى إلا تراث جليل لنا وللأجيال الآتية بعدنا.

ولو شئت أن أقرأ صفحات هذه الحياة لطال بي الوقوف، دون أن أتمكن من سرد ما فيها، وإنما أردت بموقفي اليوم أن أؤدي بعض واجبي نحو الفقيد، وأن أستخلص من حياته السياسية ما نستضيء به كلما أعوزنا النور الذي يهدينا سواء السبيل».

ثم ذكرى مناقب الفقيد، والعقبات التي كان يقاومها بقوة العقيدة والثبات، ثم قال:

«كان الفقيد يبتسم لهذه العقبات ولا يعبأ بتلك الاضطهادات؛ لأنه كان يعتقد كما يعتقد الفلاسفة، أن العقبات لا تقف في سبيل الإرادة، فإن هذه الإرادة الصادقة تسحق العقبات، وتزداد قوة بسحقها، وما مثلها إلا كمثل النار التي يلقى فوقها بعض الأشياء بقصد إطفائها، فتلتهم هذه الأشياء، وبفضل ذلك الالتهام تزداد اشتعالًا.

أما صحيفة الفقيد في منهاه، فقد سطرت فيها كلمة «التضحية» بأحرف من نور، وفي خلال هذا العهد بلغت نفسه مكانة يغبطه عليها كبار أبطال العالم في التاريخ، قديمه وحديثه، فقد صبر على الآلام طويلًا، وأنكر ذاته ولم يفكر في راحته ولا في صحته، ولا في حياته، وتحمل جميع المتاعب على اختلاف أنواعها، دون أن يشكو؛ بل كان يستعذب الألم في سبيل الوطن.

وإن نظرة واحدة إلى صورته الأخيرة وما يشاهد من الفرق الهائل بينها وبين صورته قبل منفاه، لتغني عن كل ما يقوله الخطباء ويكتبه الكتاب. كان الفقيد يستعذب الألم، لاعتقاده أن الإنسان لا يكفيه أن يقوم بواجبه، بل يجب عليه أن يثبت أنه جدير بهذا الواجب، وهذا الإثبات لا يكون إلا بتحمل الآلام بغير مضض، كان يستعذب الألم حتى إذا رآه إخوانه على هذه الصورة لا يفكرون في الشكوى؛ بل ينسون أنهم يتألمون، كان يستعذب الألم؛ لأنه ما كان يملك لنفسه حياة ولا موتًا، وإنما الذي يملكه هو أن يقف مجهوداته على خدمة أمته، وأن يتألم عسى أن يكون في ألمه بلسم لجراح الوطن، وتخفيف لمصائب مواطنيه.

كان يستعذب الألم لاعتقاده أن الآلام تنير للقلوب طريق الحقيقة التي تغيب عن الإنسان إذا كان سعيدًا ولم يعرف كيف يتألم.

كان يستعذب الألم، لاعتقاده أن الآلام تتسلط على النفوس فتجعلها كبيرة، ولأن في النفوس مكانًا رفيعًا ترقد فيه الحياة، والألم وحده هو الذي يستطيع أن يبلغ هذا المكان. فهنيئًا لهذه النفس الكبيرة، والروح الطاهرة، ومجدًا وفخارًا لذلك القلب الذي لم ينبض إلا باسم الوطن وحريته.

وإذا كانت مصر لم تسمح له الظروف بتمجيد بطلها في حياته، فإنها الآن تمجد أعماله ومبادئه، وسيأتي يوم قريب يكون فيه التمجيد أعظم شأنًا، عندما تنقل جثة الفقيد إلى مصر، وتدخلها بعد دخول الحرية، ويومئذ ترفرف روحه فوق الرءوس، فرحة بتحقيق آمالها، الآن فإنها تتوسل بكلمة منفى فرنسا «فيكتور هيجو» التي قال

فيها: «لقد قطعت عهدًا على نفسي وأمام ضميري بأن أشارك الحرية في منافها إلى النهاية، فإذا عادت عدت معها».

فلنجدد اليوم عهدًا على أنفسنا أمام الله وأمام ضمائرنا بأن نحتفظ بمبادئنا، ونستمر في جهادنا السلمي المشروع حتى ترد لنا حريتنا المقدسة، {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولًا}.

بقية الخطباء

وخطب بعده من الشعراء والخطباء: الشيخ إبراهيم سليمان، أحد علماء المعهد الإسكندري، وقد ألقى قصيدة، القمص مرقص سرجيوس، فرج أفندي جرجس مندوب بطريرك الأقباط، الدكتور منصور فهمي بك، على المنزلاوي بك، أحمد بك الشيخ، الشاعر أحمد نسيم (وقد نشرنا قصيدته في غير هذا المكان)، الشيخ علي سرور الزنكلوني، ثم ختمت الحفلة بقراءة ما تيسر من القرآن.

حفلة السيدات

وأقامت السيدات المصريات حفلة تأبين يوم الجمعة ١١ يونية سنة ١٩٢٠م (بعد نقل رفاته إلى مصر)، فأعدت سرادقًا في ساحة ضريح الفقيد بالسيدة نفيسة، اجتمعت فيه فضليات السيدات والآنسات، وبدأت الحفلة بتلاوة آي الذكر الحكيم، ثم ألقت السيدة أمينة هانم نمازي خطبة مستفيضة، وصفت فيها شعور المصرية نحو فقيد مصر العظيم، وعدت مناقبه وألمت بفضله في بعث النهضة الوطنية، وتلتها السيدة حرم الدكتور عثمان لبيب عبده، فحرم المرحوم إسماعيل بك عاصم، فالسيدة حصلب، فكريمة المرحوم محمد رياض بك، فالسيدة لبيبة هاشم، فالدكتورة عيوشة هانم، فكريمة المرحوم محمد عز العرب بك، وألقت كل منهن خطبة في تقدير أعمال الفقيد، ووافى مكان الاحتفال تلميذات مدرستي «الثبات» و«العناية»، وألقت إحداهن «الآنسة ثريا» كلمة بليغة مؤثرة عن الفقيد، ثم أنشدت التلميذات نشيدًا

بليغًا محزنًا. وانتهى الاحتفال بكلمة شكر ألقتها السيدة أمنية هانم نمازي، وختمت بتلاوة القرآن، وزار المحتفلات الضريح مترحمات، ونثرن عليه طاقات الزهر والرياحين.

بعض المراثي في الفقيد

ننشر هنا بعض ما يسعه المقام من مراثي الشعراء، حين نعي الفقيد، أو حين مجيء رفاته إلى مصر.

حفلات أخرى

هذا وقد تعددت حفلات التأبين في مختلف أحياء القاهرة، وفي الإسكندرية والأقاليم.

قصيدة الأمير شكيب أرسلان

قد عشتَ فذًّا في الرجال فريدًا ... فقضيت فذًّا في البلاد فريدا
جاهدت عمرك ثم مت مغربًا ... فغدوت من كل الجهات شهيدا
كانت حياتك حفظ مصر لأهلها ... ما غير ذلك مطلبًا منشودا
جاهدت نصف العمر في أرجائها ... علمًا ونصفًا في الغروب شريدا
لله وفيت الأمانة حقها ... وبذلت فيها طارفًا وتليدا
وأذبت في حسراتها كبدًا[1] بها ... أوديت تحرق من ذويك كبودا
لم تدخر في حب مصر وأهلها ... وسعًا ولا جهدًا هناك جهيدا
ما عزَّ عندك أن تركت لأجلها ... وطنًا وقصرًا كالسدير مشيدا
ولذائذًا ونفائسًا أورثتها ... عنها صرفت وعيِّلا وولیدا
غادرته طفلًا وطال بك النوى ... فحرمت منظره وصار رشيدا

(١) إشارة إلى أنه توفي رحمه الله بمرض الكبد.

لخلاص مصر قد تركت مآثرًا ... بيضًا سهرْت لها ليالي سودا
كنت المتيم والعميد[1] بحبها ... فلذا لفتيتها غدوت عميدا
كم خطأوك وعاندوك وكل من ... يفري فريك لم يزل محسودا
حتى تمخضت السنون حقائقًا ... خروا لديها ركعًا وسجودا
علموا بأنك لم تكن متهورًا ... بل كنت تنظر مذ نظرت بعيدا
عمدوا لرأيك فانقلبت وتلك من ... نعم الإله مؤيدًا تأييدا
لم تحتضر إلا ومصر كلها ... لنظير صنعك تستحث وفودا
فلشد ما قرت عيونك عندما ... حف الجميع لواء المعقودا
فانظر إلى مصر العزيزة بعضها ... مثل البريم[2] ببعضها مشدودا
مهما استعز الغالبون بجندهم ... فالحق أعظم قوة وجنودا
قد أقبل الزمن الذي أبناؤه ... لا يحملون سلاسلا وقيودا
نمْ يا فريد على يقينك إنه ... يوم تأذن بالخلاص عتيدا
لا بد من فرج قريب عنده ... مصر تؤمم شخصك الملحودا
ويبشرونك بالخلاص إلى الثرى ... أن قم وشاهد يومك الموعودا
يبقى مع الأهرام ذكرك ثابتًا ... ويظل قبرك مثلها مشهودا
وهناك تنقلب المدامع قرة ... ويعود مأتمك المفجع عيدا

قصيدة الشاعر أحمد محرم

أترى الكنانة كيف تعبث بالدم ... الله للشهداء إن لم ترحم
أدنى المراتب في الصبابة عندها ... تلف المحب وطول وجد المغرم
ترجى تحيتها فيكذب دونها ... أمل الملول ومطمع المتبرم
ضل امرؤ قتلته (مصر) فلم يصن ... عهد الولاء لها وحق المنعم

(١) العميد بحبها: أي الذي أضناه الحب.
(٢) البريم: الحبل المبروم.

معشوقة يجري مع الدم حبها ... في قلب نصرانيها والمسلم
بعثته (مصر) مجاهدًا ورمت به ... فرمت بجيش للفتوح عرمرم
خاض الغمار يهدُّ كل كتيبة ... ويهز رايات الكمى المعلم
متجردًا لله يطلب حقه ... ويقيم جانب شعبه المتهدم
فإذا القياصر بالأرائك تتقي ... وإذ الأرائك بالقياصر تحتمي
كلَّ به فزع وكلَّ جازع ... يبغي القرار ولا قرار لمحرم

إلى أن قال:

يا سيد الشهداء بعد رفيقه ... أرضيت ربك في جهادك فاغنم
ليس الذي بدأ الجهاد فلم يمت ... إلا كبادئ حجة لم تختم
والناس في شرف الحياة وعزها ... ضدان من ماض وآخر محجم
وأجل ما رزق الرجال همامة ... تنفي غرام المطلب المتهجم
تتجشم الصعب المخوف وعندها ... أن المنية مركب المتجشم
مأوى الممالك والشعوب ومالها ... وصفوك ظلمًا بالغريب المعدم
لك من يقينك ثروة إن قدرت ... قيست كنوز العالمين بدرهم
إيمان ذي الإيمان أعظم ثروة ... ويقين ذي الوجدان أفضل منجم
ضج النعاة فضج كل موحد ... وارتج ما بين الحطيم وزمزم

ثم قال:

يا مصر حسبك ما رضيت من ... وبرئت من ماضيك إن لم تنقمي
إن التي رمت المماليك باعدت ... بين المضاجع والشعوب النوم
الأرض تركض بالشعوب حثيثة ... فامشي على آثارها وترسمي
إن كان قيدك لم يحل فإنه ... خلق المريب وشيمة المتوهم
سيرى فما بك غير تلك وما بنا ... إلا مراقبة العدى واللوم
يا نازحًا لم نقض حق بلائه ... الله جارك فاغتبط وتنعم

وانفض همومك عن فؤادك إننا ... نلقى الهموم بكل أغلب أضخم
إن المناكب والنفوس بأسرها ... لفداء (مصر) من المهم المؤلم
ماذا حفظت لأهلها من حرمة ... وقضيت من حق عليك محتم
حيتك (مصر) على البعاد فحيها ... ودعت مسلمة عليك فسلم
جاوزت حسن الصنع في خدامها ... وكفيت سوء الذكر من لم يخدم
كذب المضلل لن ينالك سعيه ... إلا إذا نال السماء بسلم
أقسمت مالك في جهادك مشبه ... والحر مؤتمن وإن لم يقسم
ما زلت تسرف في المغارم دائبًا ... حتى جعلت النفس آخر مغرم
أي القواضب بعد ما قطع الظبا ... ولوى الأسنة في الوغى لم يثلم
رددت صوتي في الرثاء وإنما ... رددت من صوت الكنانة في فمي
حيتك في الملأ العلي وأزلفت ... حور الجنان إليك شعر (محرم)
أسفي لأوبة راحل لم تقضها ... عدة المنى وتحية لم تنظم

قصيدة النائب المحترم

الأستاذ محمد محمود جلال

يا شهيدًا قضى عليه الوفاء ... روَّع النيلَ فيك هذا القضاء
ماد بالناس قطر رمسيس لما ... داهمتنا بنعيك الأنباء
عشت فينا الرئيسَ لكن بسعي ... حاطه الدهر منك ذاك الإباء
ذدتَ في الحق مُر دنياك حتى ... ما ثناك التراث والأبناء
وقضيت الحياة في خير ذكر ... فتمنى كموتك الأحياء
قلت للناس يوم لاموك كفوا ... ليس طول المدى يسود العماء
مزق الحق ستر كيد الليالي ... فتجلى الهدى وزال الغشاء
يا مثال الثبات في كل خطب ... مجلى الهم يوم يطغى البلاء
قومك اليوم للنصيحة عطشى ... قولك الفصل، ضلت النصحاء

هـاك قلبـي وتلـك منـي دمـوع ... إن يغـضها الأسـى تـسح الـدماء
في حمـى الله يـوم مـت شـهيدًا ... يـا زعـيم الهـدى فحـق البكـاء

قصيدة الأستاذ عباس محمود العقاد

أطلقـت وجـداني ومثلـك يطلـق ... فـالنفس تـألم والجـوانح تخفـق
وأعـدت مـن جـدث الوجـوم ... ولمـا يعيـد أشـد ممـا بزهـق
مـرت بي الأيـام أنكـر كلـما ... يبـدي الخيـال ومـا يعيـد المنطـق
أجفـو الكـلام، وقـد يغـوث مكتـو ... نـاج ويسكت في الظلى من يخنق
دنيـا نزاولهـا ونحـن كأننـا ... مـن غـير طينتهـا نـصاغ ونخلـق
محجوبـة المرمـى فـما لـشرورها ... تعتـاد حـاسرة الوجـوه وتبثـق
نمشي على الأبدي من أشواكها ... ونتاجهـا الأبـدي عنـا مغلـق
وكـأنما الـدنيا سراب سرمـد ... لا يرتـوي منـه، ولكـن يُغـرق
سـلواك فيهـا حـين يخفـق عامـل ... ترجـوه، إن صـداه قـد لا يخفـق
أفريـد لا يلمـم بـسيرتك الـردى ... أبـدًا ولا يـبرح سـلاحك يمـشق
مـا كـان ذاك العمـر إلا وقعـة ... الـدهر حومـة حربهـا لا الخنـدق
والنـاصرون الحـق جـيش واحـد ... متجمـع في مـده متفـرق
الأنبيـاء الـصالحون جنـوده ... والحـق بيرقـه ونعـم البـيرق
لا يئـسنك أن قـضيت فإنـه ... جـيش يمـوت غزاتـه لا يمحـق
مـا زال مطـردًا فقبلـك فيلـق ... شرعـوا لهاذمـه[1] وبعـدك فيلـق
خـبر الجوانـب أن تكـون بجانـب ... أضـداده أسرى وإن لم يوثقـوا
أسرى المطامع ما تزال صفوفهم ... تعدو إلى الغرض القريب وتعنق[2]
جاهـدت في الـدنيا جهـاد مثـابر ... لا يبتغـي أجـرًا ولا هـو يفـرق[1]

(١) اللهاذم: السيوف القاطعة.

(٢) العنق: ضرب من السير السريع.

تلقى على النعماء نظرة ساخر ... ويطير من فرح بها من ترمق
كم غيرت منك السنون وبدلت ... ووفاء نفسك ثابت لا يقلق
ما من هوى إلا نسيت ولا أذى ... إلا لقيت، وما الختام محقق
سجن ومجهدة وبُعْد أحبة ... ووداع آمال وسقم موبق
صابرتها زمنًا كأن جزاءها ... عن كل رزء حل تاج مشرق
صبر الهداة المرسلين وعفة ... بين الملائكة الكرام تحلق
أسفى عليك وقد تقسمك الضنى ... والشوق والألم الملح المصعق
في عالم يسع المدائن والقرى ... فإذا طلبت الحق فهو المأزق
وغدوت كالشبح المردد كلما ... دجت الحوادث يستثار فيطرق
مثلت لعيني صورتاك فرابني ... نظري ولكن الفجائع تصدق
أكذا تحور النفس في أجسادها ... أكذا يحول الرونق المتأنق؟
في هذه سَمْتُ الحياة، وهذه ... فيها الحياة بقية تتعلق
وهنا الطماح المشرئب، وهاهنا ... سأم على رغم التجلد محدق
شكلان ما اختلف اختلافهما على ... بعد الوشيج مغرب ومشرق
حالت مجالي البشر وانطفأ السنا ... في وجهك الضاحي وغاض
في خمسة الأعوام بدل كله ... إلا سماحة ماجد لا تخلق
وتساءل الأحباب: كيف ترونه؟ ... فتلعثموا حذر الجواب وأطرقوا
وأتى النعي فقال كل مروع ... اليوم تبتذل الدموع وتهرق
ما مات قبلك يا فريد مجاهد ... إلا وأنت السابق المتفرق
يا مبعدًا عنا وليس بمبعد ... جسد له في الأرض لحد ضيق
الأرض أوطان الجسوم وإنما ... بالنفس تختلف الجهات وتفرق
لا يبعدنك الله عنا راحلا ... ذكراه أثبت في الضمير وأعمق

(١) يخاف.

هو بضعة من جسم مصر تضمها ... أرض برياها المطهر تعبق
قبر بهاتيك المغارب شاهد ... بحياة مصر، وإنه لمصدق
هيهات يبلغ في المفاخر شأوه ... عمد لفرعون هناك تنسق
بريلن قبرك أو يضمك بيننا ... هرم بإحياء المآثر يخلق
تأبى لجسمك أن يجاور مضجعًا ... سافي الرغام عليه ذل مطبق
يا أيها الباكون بعد محمد ... هذا الحمام هو الحمام الأرفق
ضنَّ الشهيد على الهوان بجثة ... طويت فضنوا بالنفوس وأشفقوا
شبان مصر وما دعوت سوى ... يحيا بهم أمل البلاد ويورق
لا تلهينكم الجدود ولا المنى ... أبدًا ولا عيش الشباب الريق
أيعيش في لهو الرفاهة من له ... من كل صعلوك إله مطلق؟
لكم الغد المنشود فاعتصموا به ... فإذا استقر لكم أساس فارتقوا
بؤسًا لمن يمسي يعدد ماله ... وحياته مما يباع وينفق
المستميح قمامة من رزقه ... ويسام شكرانًا على ما يُرْزق
كان الجنوح إلى السعادة حكمة ... واليوم من يبغي السعادة أخرق
أنى لعان ليس يملك نفسه ... أمل سوى استنقاذها وتشوق؟
املك زمامك ثم فاجمع بعده ... ما شئت أو فانبذ فأنت موفق

ومن قصيدة أخرى له

قالها حين مجيء رفات الفقيد إلى مصر

دارَ الندى ألا خلعت سوادًا؟ ... هذا فريد في الكنانة عادا
رجع الغريب وقر من وعث النوى ... واليوم ينسى الأين والترددا
فتنظروه من المغيب كدأبكم ... زمرًا حوالي ركبه وفرادى
أزف اللقاء فأنصتوا وترقبوا ... بين المواكب دارة تتهادى
وسلوا مطالعها عن الشمس التي ... شهد الغروب ضياءها الوقادا

بين المغارب والمشارق لم يزل ضوء الشموس مجددًا مزدادا
واغبطةً للناس لو صدقت لهم كل المطالع مبدأ ومعادا

إلى أن قال:

أمشيعًا في مصر قد عبروا به أممًا وجازوا أبحرًا ووهادا
ما كان أطولها طريق جنازة وكذاك شأنك في الحياة جهادا
لما رأيتك في الديار سألتهم هل آن أن يجني الغراس حصادا؟
هل فارق الذل الكنانة فارتقى منها «فريد» موئلًا ومهادا
لو كان ذاك لكدت تطرح الردى فرط السرور وتحطم الأقيادا

واختتمها بقوله:

إن هان شأن اليوم فالأمس الذي تأويه أعجز شأوه الأندادا
فابلغ مكانك في ذؤابة صرحه واسكن إلى المجد العهيد وسادا
وتعز عن أمل الحياة فربما أحيا به الغد أنفسًا وبلادا
سيان قاصي الأرض والداني على من يرقب الأيام والآمادا

قصيدة الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

شطْن المنون ملكت أي قياد من مصعب ما كان بالمنقاد
فأناخ لا يرجى لديه على البلى سبق إلى الغايات والآماد
وثوى بمدرجة تساوى عندها ذل الحقير وعزة الأمجاد
نجمات قد غربا: فذا لمنية عجلى، وذاك لغربة وعوادي
والهفتاه له، يذوب كيانه وجنانه كالكوكب الوقاد
ويشيع فيه الموت وهو مغالب برد الردى بحرارة الفرصاد
يأبى على وقع البلى ودبيبه أن لا يمد يدًا غداة تناد
ويغالط القلب القريح كأنما سهم المقادر ليس في الأكباد

وإذا تمثـــل حينـــه لـــضميره ... وخروجـه مـن حلبـة الأجنـاد
نـزت الحيـاة بـه تنـزي ألـسن ... للنـار مـشفية عـلى الأرمـاد
ويلذ أن يلقى الخصاصة والأذى ... والبعـد عـن أهـل وعـن أوداد
كـل يهـون عليـه إمـا أنجـح المـ ... ـسعى وفـك موثـق الأصـفاد
لو شاء كان على الورى مستعليًا ... بالمـال والألقـاب والأعـضاد
لكـن ترفـع عـن جـدى لا يقتنى ... إلا بوسـم الخـسف في الأجيـاد
ثبت البواسل قبل عهدك في الوغى ... كـالطود راسـخ قنـة ووهـاد
غضبوا لحوزتهم تباح فزحزحوا ... أمـضى قواضـبهم عـن الأغـماد
وتزاحفوا والنفس مليء شعابها ... أمل يعد لهم من الأمداد
ومـضوا خفاقًـا للقـاء كـأنما ... أيامـه الجـلى مـن الأعيـاد
حتى أماطوا الضيم عن أوطانهم ... بـالجود بـالأرواح والأجـساد
لكـن مـن يمـضي إلى مـستنقع ... للمـوت لا حلـو ولا بـبراد
وقد استحال الصبح ليلًا حالكًا ... وخبت مصابيح الرجاء الهادي
وانفـض كـل منـاصر ومظـاهر ... عنـه فـلا ذو نخـوة أو فـاد
وإذا أدار العـين لم تأخـذ سـوى ... طـول الطريـق إلى مـدى الأبعـاد
في حيـثما جالـت فـثم حيالهـا ... مرض النفوس يفت في الأعضاد
هـذا الشهيد ومـا عـدتك صفاته ... يـا أوحـد الأبطـال والأنجـاد

إلى أن قال:

قد تسقط الأزهار عن أغصانها ... ويقـر قلـب النسر وهـو يـرادي
وترى النجوم الزهر من أفلاكها ... تهـوى مـن الآبـاد في الآبـاد
كـل يلـم بـه العفـاء وهـل تـرى ... شيئًا يـدوم عـلى الزمـان العـادي
لكـنما ماضـيك أبهـر روعـة ... مـن أن يـضيع كـصرخة في واد
لـو لم يكـن منـا سـواك مجاهـد ... لكفـى بـه شرفًـا وفخـر بـلاد

قصيدة الشاعر أحمد نسيم

رمانا الزمان بإحدى الكبر ... ومنه العظات ومنه العبر
شهيد تصارع في حومة ... رماه القضاء بها والقدر
وخلف من بعده أمة ... كسرب النجوم فقدن القمر
أتى جثة سافرت للبلى ... ولم يسترح من عناء السفر
متى أوردته حياض الردى ... وورد الردى ما له من صدر
تعلقها عند شرخ الصبا ... ولم يجفها عند مس الكبر
وأينع في روضها غرسه ... ولم يبق إلا اجتناء الثمر
وأي امرئ عاش أقصى المدى ... فنال من العيش أقصى الوطر؟

إلى أن قال:

هنيئًا لميت نعته العلى ... وطوبى لحي وعى وادكر
وحسب فريد منى نالها ... فقد حصدت كفه ما بذر
فتى أغمض الموت أجفانه ... وأطبقها بعد طول السهر
أفاض على قومه ماله ... فأدى الحقوق وأسدى البدر
طويل نجاد الجدى عائل ... لكل ضريك إليه افتقر
رأى الحرص عارًا على نفسه ... فهان على نفسه ما ادخر
وكان بصيرًا بعقبى الندى ... يرى المال يفنى وتبقى السير
وأخلد ما للفتى ذكره ... إذا نزل القبر لا ما يذر
وكم صامت ناطق في الثرى ... بآي فصاح كآي السور
وليس الذي ذكره خامل ... كمن شاع صيت له وانتشر
وليس بميت أغر اسمه ... على صفحات العلى مستطر
خطيب المنابر منطيقها ... وأسلس من فوق جمع نثر
فإن يكب يومًا بمضماره ... فكم من جواد كبا أو عثر

وما زال ينهب في عدوه ... فيافي الفجائع حتى ضمر
وحتى دهته بأعناتها ... كوارث كاسرة للفقر

وختمها بقوله:

أرى «كاملًا» راح في شرخه ... وأودى «فريد» حميد الأثر
زعيمًا بلاد خلت منهما، ... «أبو بكر» مات وولَّى «عمر»
عزاء العلا عنهما أمة ... تنادت لتجديد مجد دثر
وشعب سعى نحو آماله ... بعزم توقد حتى استعر
وما من ضعيف القوى واهن ... تشبث بالحق إلا انتصر

ومن قصيدة للأستاذ محمد عبد المطلب

سلوا جفن عيني ما له بات بنزف ... وعهدي به إن سمته الدمع يأنف
ويا رب هم يملك النفس بالأسى ... ويعدو على العين الجمود فتذرف
وما أنا؟ ما دمعي؟ وفي مصر أنة ... بها الطير نوح والغمائم وكف
بكير غريبًا طوح البين داره ... فلا العود مأمول ولا الدار تعرف

إلى أن قال:

قضى الله أن يسقي فريدًا بأرضنا ... كئوسًا بالاستسقاء للنفس تخطف
تجوفه الداء العضال وهل نجا ... من الموت مضنى داؤه يتجوف
يعز على برلين أن يغلب الردى ... عليك بنيها والردى ليس يصرف
أطباءه لو يستطيع فداءه ... بنو مصر غالوا في الفداء وأسرفوا
قليل عليه أن يفديه قومه ... بما جمعوا من تالد أو تطرفوا
فليت المنايا شاورت فيه أمة ... براها الأسى من بعده والتلهف
عرفنا له بر الوفي بأمة ... إذا خان قوم عهد مصر فلم يفوا
أفاض عليها نفسه بعد ماله ... ومال بهم عنها متاع وزخرف

ولـولا رجـال مؤمنـون نجـوا بهـا لراحت بها ريح من الغدر زفزف

ومن قصيدة للأستاذ محمد الهراوي

يـــا أيهـــا الراقـــد في لحـــده نـــم أنـــت جـــار الله في خلـــده
طـال الـسرى فاسـكن إلى راحـة جـــاوز مـــسعاك مـــدى حـــده
لم تعـــي بالعـــبء عـــلى ثقلـــه قـــد ألقـــى العـــبء عـــلى طـــوده
والجـبن لم تعـرف لـه موطنًـا فأنـــت مفطـــور عـــلى ضـــده
جهـادك الحـق ومـن ذا الـذي يقـوى لـدى الحـق عـلى رده

إلى أن قال:

يـا نيـل زد أو لا تـزد مـن أسـى ولهفـــة حـــرى عـــلى صـــده
إن الـــذي تطمـــع في عـــوده قـــد آثـــر المـــوت عـــلى عـــوده
ومنفـــذ الظـــن إلى رجعـــه قامـــت وصـــاياه عـــلى ســـده
أقـــسم لا حيًّـــا ولا ميتًـــا يـــراك والحـــال عـــلى عهـــده
واديـك قـد ضـاق بجثمانـه حيًّـا وميتًـا ضـاق عـن لحـده
والـسيف إن ضـاق بـه غمـده هيهـــات لا يـــأوي إلى غمـــده

ومن قصيدة للأستاذ أحمد الزين

جافت مضاجعها عليك جنوب وهفت بصبر الراسيات خطوب
يـا بـدرها مـا كـدت تجلـو ليلهـا فيـضيء حتـى أعجلتـك شـعوب
فلئن حواك بغير أرضك ملحد فلقد حوتك بأرض مصر قلوب
ولـئن قـضيت غريـب دار نائيًـا (فمحمد) قد مات وهو غريب

ومن قصيدة للدكتور زكي مبارك

سـلوا (بـرلين) عمـن حـل فيهـا يفتـــت كبـــده المـــرض العنيـــد
مـضى يـستوهب الأيـام عمـرًا تـــتم بـــه المـــساعي والجهـــود

فلم يذهب بعلته طبيب ... ولم يكتب له عمر جديد
وخر على السرير وحب مصر ... على تبريح علته يزيد
فيا لهفي عليك وأنت كهل ... غريب عن أحبته بعيد
تموت فلا ترى مثواك أم ... ولا أخت ولا زوج ودود
ولا يروى ثراك أخ شقيق ... بدمعته ولا طفل وليد

ومن قصيدة للدكتور عبد الوهاب عزام
وكان طالبًا بمدرسة القضاء الشرعي

المجد للأحرار والشجعان ... ناءت مطالبه بكل جبان
تسمو له النفس الأبية ترتئي ... في كل مهلكة سبيل أمان
ترنو إلى الغرض القصي فيدني ... في عزمة مشبوبة النيران
وترى النهاية لا تبالي طرقها ... النجح فيها والردى سيان

إلى أن قال:

أفريد كم حملت جسمك عبئه ... فتركته متهدم الأركان
عذرًا لكم يا معشر الأحرار مو ... ت الحر خير من حياة هوان
قل للمجلي في طريقك (مصطفى) ... فسيلتقيك بجنة الرضوان
أديت أكبر واجب أديته ... وأتيت بالبشرى عن الأوطان
خلقت شعبًا ناهضًا مستبسلًا ... يلقى الشدائد صابرًا ويعاني
ويقول لا شيء محالًا كل ما ... وجد العزائم فهو في الإمكان

ومن قصيدة للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي
وكان طالبًا بمدرسة القضاء الشرعي

شدَتْ مصر بألحان الأيامى ... غداة الخطب يستبق الحماما

إلى أن قال:

حيـــاة كلهـــا مثـــل فجـــدوا ... وحثـوا الخطـو وائتمـوا ائتمامـا
وتـــضحية عـــلى الأيـــام تبقـــى ... ونهجًـــا ســـنه لكـــم قوامـــا
ملأت صحائف التاريخ فخرًا ... وغـيرك يمـلأ الـدنيا كلامـا
لقـد جـاء الكتـاب بـذكر قـوم ... أولي عـزم فكنـت لهـم ختامـا
وحـسبك جنـة الفـردوس فيهـا ... رســول الله يقرئـك الــسلاما

ومن قصيدة للأستاذ موسى شاكر الطنطاوي

يا حادي البرق حسبي بالجوى نبأ ... أكبرتـه فعـصاني منطقـي ويـدي
حملت بالأمس ذكرى الداء ألمسه ... يـدب في كبـد قـدت لهـا كبـدي
واليـوم تنبئنـا لـبس الحـداد عـلى ... فقـد الـرئيس فريـد غـير متئـد
في حـين نرفـع للإقبـال رايتنـا ... ونـرخص القلـب مـن بـأس ومـن
كـأن مبـدأ هـذا الفـتح خاتمـة ... أنهيتهـا بحيـاة الجـد والجلـد
يـا أيهـا العلـم الـساري بأمتـه ... في موكـب بجـلال المـوت محتـشد
عـلى ذهابـك يـذري دمعـه وطـن ... مقـدس لـك فـضلًا وافـر العـدد
أيقظـت همتـه في موقـف عجـب ... يثنـي عليـك بـه في يقظـة الأبـد

قصيدة شوقي في الذكرى الخامسة للفقيد

ونظم أمير الشعراء شوقي بك سنة (١٩٢٤م) قصيدة من أبلغ شعره في «فريد»، ألقاها النائب المحترم الأستاذ فكري أباظة في الاحتفال بالذكرى الخامسة لوفاته، نختم بها هذه المقتبسات من المراثي فيه، قال:

نُجـدد ذكـرى عهـدكم ونعيـد ... وندني خيـال الأمـس وهـو بعيـد
وللناس في الماضي بصائر يهتدي ... علـيهن غـاو أو يـسير رشـيد
إذا الميـت لم يكـرم بـأرض ثنـاؤه ... تحـير فيهـا الحـي كيـف يـسود
ونحـن قـضاة الحـق نرعـى قديمـه ... وإن لم يفتنـا في الحقـوق جديـد

ونعلم أنا في البناء دعائم ... وأنتم أساس في البناء وطيد
فريد ضحايانا كثير وإنما ... مجال الضحايا أنت فيه فريد
فما خَلف ما كبدت في الحق غاية ... ولا فوق ما قاسيت فيه مزيد
تغربت عشرًا أنت فيهن بائس ... وأنت بآفاق البلاد شريد
تجوع ببلدان وتعرَى بغيرها ... وترزح تحت الداء وهو عتيد
ألا في سبيل الله والحق طارف ... من المال لم تبخل به وتليد
وجودك بعد المال بالنفس صابرًا ... إذا جزع المحضور وهو يجود
فلا زلت تمثالًا من الحق خالصًا ... على سره نبني العلا ونشيد
يعلم نشء الحي كيف هوى الحي ... وكيف يحامي دونه ويذود

obeikan.com